دلالة البحر في شعر إدريس جماع

إعـداد

د/سعد عبد القادر العاقب سعد

جامعة بحري، كلية اللغات، قسم اللغة العربية

Hajsaad4444@yahoo.com

دلالة البحر في شعر إدريس جماع

د/سعد عبد القادر العاقب سعد
جامعة بحري، كلية اللغات، قسم اللغة العربية
Hajsaad4444@yahoo.com

ملخص البحث:

دلالة البحر في شعر إدريس جماع، دراسة تتبعت فيها المواضع التي ذكر فيها إدريس جماع البحر، والماء ومن ثم دلالته المعنوية في شعره، ولا ينفصل البحث عن دراسة الظاوهر الطبيعية في دواوين الشعراء، وهدف البحث إبراز هذه الجوانب الادبية المهمة، فالبجر كغيره من ظواهر الطبيعة، يدخل في الشعر، قم يتسع معناه ودلالته عن الوصف المجرد إلى دلالات تقترن بأحوال الشاعر النفسية، والجو المحيط بالنص، وقد وجدت تشابهًا بين جماع وشعراء آخرين في وصف البحر، حيث كانت الدلالة متشابهة بينهم، ومن أهم دلالات البحر التي وجدتها في شعر جماع، شاعرية البحر، ودلالة القلق والاضطراب، ودلالة الخوف والمجهول، أما المنهج الذي اتبعته في الدراسة فهو المنهج الوصفي التحليلي، وأهم نتائج البحث، أن إدريس جماع، أكثر من كلمة الموج وهي من لوازم البحر، وأن دلالة القلق والاضطراب في البحر تناسب نفسية الشاعر.

كلمات مفتاحية، البحر: دراسة تتضمن مظاهر الماء، إدريس جماع: شاعر سوداني، لحظات باقية، ديوان الشاعر إدريس جماع.

Abstract:

The Implication of the Sea in the Poetry of Idris Jamma'

The present study follows the places in which Idris Jamma' mentioned the sea, and thus, its semantic implications on his poetry, and the study is also concerned with the natural phenomena in the poetry collections of poets. The study aims at highlighting these important literary aspects, as the sea like other natural phenomena, is dealt with in poetry, and its meaning may expand to include not only the mere description but also the implications related to the psychological wellbeing of the poet and the atmosphere surrounding the text. The study have found similarity between Jamma' and other poets in the description of the sea in that its implication is similar between them, and among the most important sea implications in which I have found in the poetry of Jamma' are the poetic nature of the sea and the implication of anxiety and disorder and of the fear of the unknown. The study has adopted the descriptive analytic method, and the most important findings are that Idris Jamma' mentions the word "wave", which is connected to the sea, abundantly, and that the implication of anxiety and disorder fits the poet's psychological state.

مقدمة:

هذه دراسة لظاهرة طبيعية معتادة للعين البشرية، لكنها ذات أثر معنوي عميق في نفوس الشعراء، فالبحر من مظاهر الطبيعة التي علقت بنفوس البشر بقوة، وقد اخترت ديوان الشاعر إدريس جماع ودرست تأثير البحر في نفسية الشاعر، والمعاني الشعرية التي اقترن بها البحر، اعتمادا على نفسية الشاعر المتأملة لمشاهد الطبيعة، والتشابه بين تقلبات الطبيعة وبين نفسية الشاعر وعواطفه.

تنحصر الدراسة في الأبيات التي ورد فيها ذكر البحر وما يلازمه من ألفاظ، ومن ثم النظر في دلالة تلك الألفاظ باستصحاب جو القصيدة، وكيفية توظيف الشاعر للفظ ليعبر به عن الحالة النفسية التي تنتابه، والخيال الذي يصور به البحر معنويا، لينقل صورة البحر المادية المنظورة إلى صورة شعرية خيالية تخالف ما اعتادته العين المجردة في النظر إلى البحر.

لا توجد دراسة سابقة، لكن أشارت الدراسة أيضا إلى بعض الحالات المشابهة لحالة إدريس جماع في التعبير بصورة البحر والماء، وتخيل ما وراءه من الدلالات والمعاني، حيث وردت بعض النصوص المشابهة، وهي نصوص عبر فيها شعراؤها عن أنفسهم وعواطفهم بصفات البحر والموج، فكانت دلالة المجهول من أوضح ما ذهبت إليه خواطر أولئك الشعراء في نظرتهم للبحر، باعتباره مكانا محسوسا يخفي في قعره وسطحه خواطر تنبعث في نفس الشاعر، ويبرز في هذا السياق تأثير المكان في الشاعر، فالبحر كغيره من الأمكنة مبعث لكثير من الآثار النفسية التي تؤثر في معاني الشعر، وقد درس المحدثون هذه الظاهرة بمعايير النقد الحديثة، فاطّردت قاعدة التشابه بين الشعراء في وصف البحر مقترنا بالحالة الشعرية.، قسمت

الدراسة إلى ثلاثة محاور، وهي: شاعرية البحر، ودلالة القلق والاضطراب، ودلالة الخوف والمجهول.

الدراسة:

الماء مظهر طبيعي عميق التأثير في النفس البشرية وقديما قيل(إنّه لم يُسْتَدْعَ شارد الشعر بمثل الماء الجارى والشرف العالى والمكان الخضر الخالى).[1] وفي هذا القول إشارة إلى الشاعرية التي يبعثها الماء في نفس الناظر إليه، والبحر ماء يجذب بمشهده نفوس الشعراء، وإن لم نجد قصائد من الشعر القديم تصف البحر إلا في أبيات تعرض لصاحبها في القصيدة، وقد أشار بعض الباحثين حديثا (إلى عدم وجود قصائد كاملة خاصة بالبحر عند العرب، بل كانت أشعارهم، ووصفهم له وتشبيهاتهم ضمن قصائدهم الغزلية، والقصائد الخاصة بالمديح والفخر وغيره من الأغراض) [2]

اقترن البحر بالمهابة منذ زمان قديم، فالإنسان ينظر إلى الامتداد اللانهائي للماء أمامه، فتنبعث في نفسه خواطر شتى متضاربة، وهناك إشارة إلى مهابة البحر وغموضة في كتب القدماء، كقول ابن قتيبة الدينوري:(حدّثني محمد بن عبيد عن معاوية عن أبي إسحاق عن محمد بن عجلان عن عمرو بن شعيب قال: أراد عمر أن يغزي البحر جيشا، فكتب إليه عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف دود على عود بين غرق وبرق، قال عمر: لا يسألني الله عن أحد حملته فيه)[3] وقيل أيضا:(حدّث عن البحر ولا حرج، وعن بني إسرائيل ولا حرج، وعن معن ولا حرج) [4].

سمات البحر التي يختص بها من غموض وامتداد شاسع وقعر مجهول مظلم، شوقت الإنسان إلى معرفته، فذهب الخيال الإنساني بعيدا مع البحر، لذلك تجد الشعراء يتأملون البحر ويَسِمون شعرهم بالخيال الذي يهيمون معه حين ينظرون إلى مشهد البحر نظرة عميقة، (وتعد صورة البحر في الشعر العربي من المكونات المهمة المرتبطة بالخيال الشعري قديمًا وحديثًا، فما

زالت صورة البحر تفتن القارئ وتغريه لاستكشاف مخزونها المعرفي وأنساقها الثقافية المضمرة، وعلاقاتها المكانية المرتبطة بموضوعات التيه والنفي والمغامرة والعودة والانتماء والوجود، وغيرها من الدلالات والأبعاد التي اكتنفتها مكانية البحر في متن النص، ومثلما ربط الشعراء هذه الصورة المكانية بالرحلة والتأملات، فإنهم ساقوا لها في مختلف تصوراتهم أصولاً مقدسة استمدها الخيال الشعري من المصادر التوراتية والقرآنية، لأنها في هذا الجانب ارتبطت بمفهوم الخروج والعودة باعتبارها أفعالاً مقدسة محملة بفكرة الوطن والأرض في أبعادها الإنسانية) [5]، ويمكن النظر في جزء من قصيدة لخليل حاوي:

الوجه السرمدي

عشت في حنوة بيت، ما وقاك

أنه بيت على الصخر تعمر،

أن خلف الباب،

في صمت الزوايا

يحفر الموج، وتدوي الهمهمه

أن في وجهك آثارا

من الموج، وما محى، وحفر،

وأنا عدت من التيار وجها

ضاع في الحمى،

وفي الموج تكسر،

بعضنا مات، ادفنيه، ولماذا

نعجن الوهم ونطلي الجمجمة؟ (6)

لا يخفى تخيل الشاعر في هذا النص لما يتصل بالبحر من صفات، ثم مزج الشاعر هذه الصفات بانفعالاته، واتخذ من البحر دليلا على الغربة والعزلة والبعد والمنفى والسفر وغير ذلك مما يبعث القلق في النفس.

ليس البحر مشهدا طبيعيا ساكنا كالجبل أو رمل الصحراء، لكنه عالم متحرك مضطرب، وحركته واضطرابه مما يثير في النفس خواطر الشعر والتأمل، وحركة ماء البحر تسمى الموج،يروى عن (يحيى بن عدي: الحركة صورة واحدة لكنها توجد في مواد كثيرة ومحال مختلفة، وبحسب ذلك تولى أسماء مختلفة، وقد يظن من أجلها أنها في نفسها ليست واحدة، وأن لها أخوات ونظائر. والبحث الفلسفي قد قرن واحدة بواحدة على ما دل الاسم عليه في الأصل، وذلك أنه يقال: الحركة كون وفساد، ونمو ونقصان، واستحالة وإمكان؛ وإنما تباينت هذه الأسماء لمعانٍ تحققت في النفس بالاعتبار الصحيح. فالحركة في النار لهب، وفي الهواء ريح، وفي الماء موج) (7) فكلمة الموج هنا – وهي من لوازم البحر أكثر ما وقع في الشعر حديثا وقديما، وإدريس جماع نظر كغيره من الشعراء في البحر نظرة المتأمل أو الحزين أو القلق المضطرب، واتضحت هذه الحالات في وصفة للبحر في شعره، والدراسة هنا تركز على شاعرية البحر ودلالة القلق والاضطراب ودلالة الخوف .

شاعرية البحر:

تتعدد المعاني الشعرية المتصلة بدلالة البحر، وهو تعدد ينشأ من اختلاف نفوس الشعراء وأمزجتهم، واختلاف الحالات التي تنتاب الشاعر

الواحد في كل وقفة أمام امتداد الماء وشسوعه، (فقد يصف الشاعر البحر لأنه أحب منظره، أو تأثر بروعة امتداده ولكنك تحس وهو يتحدث عنه أنه يعبر بذلك عن حرية الإنسان، أو عن عمق الوجود الإنساني أو سعة التجارب الإنسانية، دون أن يصرح، في الحالين – مخبرا أو مقررا – بهذه الرابطة الوثيقة السرية بينه وبين البحر، وتكون كل حركة أو صورة أو موجة موسيقية في قصيدته صورة لذلك التطابق، وهذا التطابق قد يوحي بالتفارق أو التقابل أو التناسب أو التحاور ولكنه لا يوحي أبدا بالانفصال) [8] ويظهر لنا الرابط الوثيق بين الشاعر والبحر في كثير من قصائد المحدثين، لا سيما التي تغلب عليها الرمزية العميقة، كنشيد المدينة محمد عبد الحي:

أنا منكم. تائهٌ عاد يغنِّي بلسانٍ
ويصلِّي بلسانٍ
من بحارٍ نائياتٍ
لم تُنِرْ في صمتِها الأخضرِ أحلامُ الموانئ .
كافرًا تهتُ سنينًا وسنينا
مستعيرًا لي لسانًا وعيونا
باحثًا بين قصورِ الماءِ عن ساحرةِ الماءِ الغريبه
مذعنًا للرِّيح في جُمْجُمةِ البحرِ الرهيبه
حالمًا فيها بأرضٍ جُعلت للغرباءْ
–تتلاشى تحت ضوءِ الشمسِ كي تولدَ من نارِ المساءْ
ببناتِ البحرِ ضاجعنَ إلهَ البحرِ في الرغوِ ...
(إلى آخِرِهِ ممّا يغنِّي الشعراءْ) [9]

وينقل محمد عبد الحي هنا صورا متعددة كلها متعلقة بالبحر، بعضها مرئي وبعضها متخيل مثل إله البحر وبنات البحر.....، والتخيل هنا منشأ الشاعرية الكامنة في البحر. وقد تجد عند بعض الأدباء المحدثين تعلقا بالبحر ووصفا له يسبغ عليه سمات العظمة والمهابة، وفي هذه الحالة يصف الكاتب كل ما يتعلق بالبحر من حياة ومظاهر حضارية، كقول أحمد شوقي: (البحر الأبيض المتوسط سيد الماء، وملك الدأماء، مهد العلية القدماء؛ درجت الحكمة من لججه، وخرجت العبقرية من ثبجه، ونشأت بنات الشعر في جزره وخلجه؛ بدت الحقيقة للوجود من يبسه ومائه، وجرب ناهض الخيال جناحيه بين أرضه وسمائه؛ العلوم نزلت مهودها من ثراه، والفنون ربيت في حجال رباه، والفلسفة ترعرعت في ظله وذراه، "بنتاؤور" ولد على عبره، و"هومير" مهد بين سحره ونحره، ونحت الألياذة من صخره، و"هيرودوت" دون متونه على ظهره، و"الإسكندر" انتهى إليه بفتحه ونصره.) [10] وكقول الصديقي (خليج البوسفور: خليجٌ كأنّه سيفٌ مسلول، أو سجنجلٌ مصقولٌ وعلى شاطئيه قرى ودساكر، ورساتيقُ ومقاصر، وقصورٌ بيضٌ على الخضراء، كالنّجومِ في السّماء، أو أشرعةُ فلكٍ في ماء، وكأنّ كلَّ شاطئ منهما قد انتهت المحاسن إليه، فلا يفضّل أحدهما على الآخر إلّا لكونهِ يطلُّ عليه، فإذا رأيت ثم رأيت حين دلوك الشّمس وقد شعشع نورها كلّ بناءٍ وغرس، وقد عكس في الماء، صورَ ما يحيطُ به من الأشياء، أبصرت في الماء قبابًا من ذهب، وأهلةً من لهب، وكثبانًا من زمرّد، ووديانًا من زبرجد، وجبالًا وأيفاعًا. وحصونًا وقلاعًا، وسدرًا ودلاعًا وسقوفًا من جوهر) [11]

شاعرية البحر تتعلق بالجانب الفني الإبداعي الذي يقوم على مزج المشهد الطبيعي بانفعال النفس، وفي هذا الجانب يجعل الشاعر المشهد

الطبيعي ضربا من مثيرات الخيال الشعري، وباعثا لروح الشعر في نفس الشاعر، ويجعل إدريس جماع الماء صورة من صورة الحياة ومنبعا للشعر، في قصيدته: (الشعر والحياة):

الشعرُ من نبعِ الحياةِ ووحيِهِ ... من كلِّ حيٍّ زاخرٍ بوجودِها

صُورُ الوجودِ خميلةٌ في شوكِها... في أغصنٍ تمتدُّ خلفَ حدودِها

والوحْلُ فيها والجداولُ ثَرَّةٌ ... والماءُ يجري في نضارةِ عودِها [12]

لقد مزج جماع شتى صور الطبيعة في مشهد واحد مرئي للعامة، كالخميل والشوك، لكنه جعل الماء حياة ذلك المشهد، وكلمة النبع في الأبيات الثلاثة السابقة مع كلمتي الجداول والماء، كلها توحي بأن الشاعر يغّلِّبُ تأثير الماء على غيره من المشاهد الطبيعة الأخرى، أما في قصيدته (خلود الشعر)، فإنه يجعل الشاعر كالبحر الدفاق، وذلك باعتباره واحدا من مشاهد الطبيعة التى يتقمصها الشاعر، ويرى فيها انفعالات نفسه مثل حركتها الطبيعية:

كم قصورٍ قد كُنَّ سحرَ المآقي ... ورياضٍ مُخْضَلَّةِ الأوراقِ

وملوكٍ كانوا على الأرضِ ... جبّارينَ والجالسون في إطراقِ

وجيوشٍ تلاحمتْ والتقى ... الأبطالُ بين الإرعادِ والإبراقِ

وكؤوسٍ قد أُترِعتْ بسلافٍ ... في لقاءِ العشّاقِ بالعُشّاقِ

ألْهمتْ كلُّ هذه شاعرَ ... الأمسِ فغنّى كالزاخرِ الدفّاق [13]

ولم يتخذ جماع البحر في البيت الأخير مظهرا طبيعيا فحسب، بل جعله شاعرًا يشاركه غناءه وحركته الصاخبة، ونفوس الأدباء والشعراء جميعا تتقمص الطبيعة في كثير من الأشعار وصنوف الأدب الأخرى، وإلى هذه السمة الشعرية المرهفة يشير المنفلوطي في قوله:(وإن الأرض تئن بحفيف الريح وتضج بأمواج البحر، وما بكاء السماء وأنين الأرض إلا رحمة بالإنسان، ونحن أبناء الطبيعة فلنجارِها في بكائها وحنينها).[14] تمازج جماع والبحر تمازجا تلقائيًا فجعل جماع من نفس الشاعر بحرًا، وهذه دلالة العمق والثَّرَارة والخيال غير ذي الحدود، ودلالة الشاعرية هنا سمات البحر الذي لا يحده زمان ولا مكان، ويشبه جماعًا في توظيف البحر لهذه الدلالة مصطفى سند، الذي سمى ديوانه (البحر القديم)، فهو يمزج شاعريته ببعد غور البحر ومجهوليته، وما يتخيله رائي البحر من خيال بعيد وسمى إحدى قصائد الديوان (البحر القديم)، وجعل نفسه فيها بحرًا غير معروف البدء لا زمانا ولا مكانًا، ومنها قوله:

هذا أنا

بحرٌ بغيرِ سواحلِ

بحرٌ هُلاميٌّ عنيفْ

لا بّدءَ لي، لا قاعَ لي، لا عُمْرَ لي

لكنني في الجوفِ ينبضُ قلبيَ

النَّزِقُ اللَهيفْ [15]

ويبدو هذا التمازج التلقائي بين البحر والنفس الشاعرة في نشيد (البحر) لمحمد عبد الحي [16]

أبصر كيف مرَّ أوّل الطّيور فوقنا،

ودار دورتين قبل أن يغيبْ،

في عتمةِ النور وفي حدائق المغيبْ

وكانتِ الشمسُ على المياه أمشاجًا

من الفسفورِ واللهيبْ

.....

ثم رأينا أولَ الهدايا، ظلٌّ وجودٍ دون تحقيقٍ

وأمشاجٍ من أشنةِ البحرِ على الأُجاجْ

والليف من بقايا الشجرِ الميِّتِ حيث حشراتُ البحرِ

في مرحِها الأعمى

مشغولةٌ تنقُشُ قي ظُلْمتِها ودون أن تهتمّا

بصورِ الليلِ تُمَحِّي صورَ النهارْ

أشكالَ أبجديةِ الحياةِ بين عَلَقِ البحارْ

.....

وفي الظلامْ
كانت مصابيح القرى
على التِّلال السودِ والأشجارْ
تطفو وتدنو مرَّة
ومرَّة تنأى تغوصُ
في الضَّباب والبخارْ
تسقطُ مثل الثّمر النّاضجِ
في الصَّمتِ الكثيفِ
بين حدِّ الحلم الموحشِ
وابتداء الانتظارْ.

اتخذ محمدعبد الحي البحر عنوانا لنشيده الأول في ديوانه، فجعل منه كونا تتداح منه الشاعرية، ويطوف الشاعر في ذلك الكون مستصحبا المظاهر المتحركة والأخرى الساكنة التي تتعلق بمشهد البحر.

يجعل جماع مشهد البحر موقفا يقف عنده الشاعر، ثم يستمد شاعريته وفنه من حركة الموج، وهو ينصت إلى صوت البحر بأذنيه، فيكون التأثير هنا من مؤثر مسموع، وربما لا يكون مرئيا، وهو هنا أعمق خيالا وأبعد تصويرا، فصوت الموج عند جماع مما يؤثر في نفسه، فيجعل منه مبعثا للشعر، وذلك في قصيدته (من دمي):

تذهبُ الساعات من عمريَ قربانا لفني
أُتبِعُ الموجةَ طرفي ولها أُرهِفُ أذْني

ولقد أسبحُ في النعْمةِ من كونٍ لكونِ [17]

ثم يجعل حركة الماء العنيفة انفعالا نفسيا عنيفا يرمز به إلى قوة انفعال الشاعرية وتدفقها مثل ذلك الماء، ونلمح في هذه الدلالة اضطراب نفس الشاعر، وقلة سكونها، لأن السكون عنده ينافي الانفعال الشاعري، وحركة الماء (السيل) تمثل الخواطر الجياشة التي انبعثت من نفس الشاعر، فكانت شعر[ا]:

وإذا ما زحَمت نفسي شجونٌ طاغيهْ

وترامتْ كالسيولِ انفلتتْ من رابيهْ

والتقتْ عارمةً جياشةً في هاويهْ

فعزيفي هو أصداءُ شجونٍ عاتيهْ [18]

وفي موضع آخر يتخذ جماع من ماء النيل ومسيره الطويل دلالة على الحياة والعنفوان، حيث يتخذ من أثر النيل في الأرض دلالة على النفس الحية الشاعرة، وذلك في قصيدته (رحلة النيل) [19]

النيلُ من نشوةِ الصهباءِ سَلْسَلهُ وساكنو النيلِ سُمّارٌ ونُدْمانُ

وخفقة الموجِ أشجانٌ تُجاوِبُها من القلوبِ التفاتاتٌ وأشجانُ

كل الحياةِ ربيعٌ مشرقٌ نَضِرٌ في جانبيه وكلُّ العُمْرِ رَيعانُ

تدافع النيلُ من عَلياءِ ربوتهِ يحدو ركابَ الليالي وهو عجلانُ

...

والنيلُ مندفعٌ كاللحنِ أرسلهُ من المزاميرِ إحساسٌ ووجدانُ

حتى إذا أبصرَ الخرطومَ مونقةً وخالجتهُ اهتزازاتٌ وأشجانُ

وردد الموجُ في الشطينِ أغنيةً فيها اصطفاقٌ وآهاتٌ وحِرمانُ

وعربَدَ الأزرقُ الدفَاقُ وامتزجا روحًا كما مزجَ الصهباءَ نشوانُ

فالحديث عن النيل هنا يتخذ من الماء مصدرا للعيش الهانئ والغناء والطرب والأشجان والنشوة وغير ذلك مما يؤثر في النفس فيحييها.

تطَّرد شاعرية البحر والماء عند المحدثين من الشعراء، ومذهب جماع هو مذهبهم من حيث اتخاذ حركة البحر وصوته دلالة للشاعرية، وهو تشابه نشأ من المعاصرة وأثر التطور وظهور المذاهب الأدبية الحديثة، ونقاد هذا العصر يعلمون ذلك فيذكرونه في تحليل القصائد والنصوص الحديثة، كقول محمد مندور: (وهذا "نسيب عريضة" صاحب "يا نفس" التي خالفني في جمالها البعض، أعود أنصت إليه يهدهد طفله في "ترنيمة سرير" حزينة بموسيقاها المطردة:

ظلام الويل قد جنا وبوق الهم قد رَنَّا

فنم يا طفل لا يهنا غنى بات شبعانا

قتام اليأس غطانا فنم لا عين ترعانا

إذا ما صبحنا حانا حسبنا الصبح أكفانا

ألا يا هم يكفينا لقد جفت مآقينا

لو أنّ الدمع يغذونا أكلنا بعض بلوانا

أنصت، فتجيش النفس كهذا البحر الذي تتلاطم أمواجه خلف أذني "في الإسكندرية"، ومن عجب أن تثيرنا تلك الموسيقا المطردة الهادئة التي لم يدرك الطفل سواها، وقد رنحته "الترنيمة" فنام، ولكنها قدرة الشاعر كقدرة الطبيعة، أولا ترى إلى البحر كيف يزيدنا صخبه إحساسا بالصمت ما أنصتنا إليه؟ موسيقا هادئة تحرك القلب، وصخب بحر يشيع به الصمت. إنني أخشى أن يكون التناقض كامنا في الحياة والوجود...) [20]

دلالة القلق والاضطراب:

حركة البحر العنيفة تؤثر في نفس الشاعر بما يراه ويسمعه من الماء المضطرب، وهو يتخذ من تلك الحركة الجياشة قلبا ونفسا وأعصابًا، خاصة حين يكون القلق والاضطراب سمة للشاعر، وفي شعر جماع يكثر الترميز بالموج للحالة التي تنتاب الشاعر، فهو مرة للقلق ومرة للمعاناة من الحزن وغير ذلك مما ينافي السكون وقد (كان للموج حضور قوي عند شاعرنا – يعني جمّاعًا– ولعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا إن صورته تكاد تدس أنفها في كل أفق من آفاق تجربته الشعرية، وأكبر الظن أنه رأى فيها صورة حية أو نموذجا فذّاً لتقلبات الحياة صعودا وهبوطًا، رفعةً وانحطاطًا، امتدادًا وانحسارًا، إذًا من الطبيعي بعد ذلك كله أن تحمل صورة الموج دلالات ومعانٍ تتجاوز الصورة الساذجة لها، أعني الراسخة في ذهن كل متخيِّل بوصفها أحد معطيات الطبيعة . فالموج يرمز للظلم والتجبر..)[21]، ووقع وصف البحر أيضا بصفات الاضطراب والغضب في وصف شوقي للبحر الأبيض المتوسط وتفضيله على سائر البحار: (شمس متوقدة، وطبيعة متوددة، ولجة غير متمردة، وغيره من البحار ذميم الجوار، لئيم النجار؛ ضباب مخيم وسحاب مديم؛ أعاصير مرسلة، وصواعق منزلة؛ زمن مضطرب الفصول، وطبيعة تختلف وتحول، كما تلون في أثوابها الغول).[22]

لقد جعل جماع ليالي الحزن كموج البحر الذي يضرب الشط، ثم يعود إلى البحر، ذلك لأن عاطفة الحزن التي كانت تسيطر عليه حين إنشاء النص، أوقعت في نفسه اضطرابا واختلاجا لم يجد له شبيها سوى موج البحر وذلك في قصيدته (لوعة متجددة في رثاء الشيخ محمد جماع):

لياليَّ أمواجٌ تمرُّ فإن دنتْ من الشطِّ لاشتْ مدَّها آهةٌ حرَّى

ذوَى خاطري حتى رؤى النفسِ وانقضتْ مباهجُ أيامي فألحدتُها قبرا (23)

أمأ في قصيدته (صوت من وراء القضبان)، فإنه يجعل البحر حالة الحزن والتيه والذهول والحيرة التي تصيب نفسه الشاعرة، فاستخدم كلمة اللجة مستعارة للأثير المجهول الذي يعيش فيه ويرسل فيه صوته، والشبه بين الأثير والبحر في قول جماع هذا هو السشوع ودلالة المجهول، فكأن جماعًا يرى الحياة كلها بحرا يضيع فيه، حيث جعل للأثير لُجَجًَا كلجج البحر وجعل صوته ووجوده قطرة في ذلك البحر المجهول الحد والقعر:

على الخطبِ المريعِ طويتُ صدري وبُحْتُ فلم يُفِدْ صمتي وذكري

وفي لُجَجِ الأثيرِ يذوبُ صوتي كساكبِ قطرةٍ في لُجِّ بحرِ (24)

وكثير من شعراء العصر الحديث ذهبوا مذهب جماع في الترميز بالبحر إلى حالات الاضطراب والقلق التي تصيبهم، فمنظر البحر عند المساء أثار في خليل مطران حالة من الحزن وهو يرى الشمس تموت عند ذلك البحر (وقصيدته في وصف المساء بالإسكندرية، وهو على سيف البحر العظيم، لا تقل في تشاؤمها عن هذه القطعة، مع أنه لا يماري أحد في جمال الإسكندرية

في الصيف، ولا في منظر الشمس وهي تغيب في البحر، ولكنه يقول في الغروب:

أو ليس نزعًا للنهار وصرعة للشمس بين مآتم الأضواء؟

أو ليس طمسًا لليقين ومبعثًا للشك بين غلائل الظلماء؟

أو ليس محوًا للوجود إلى مدى وإبادة لمعالم الأشياء؟ (25)

لكن خليل مطران يعود إلى مشهد البحر، ويخلو به ويشكو إليه آلامه، فيجد في البحر ما يجده في نفسه من قلق واضطراب:

مُتَفَرِّدٌ بِصَبَابَتِي مُتَفَرِّد بِكَآبَتِي مُتَفَرِّدٌ بَعَنَائِي

شاكٍ إِلى البَحْرِ اضْطَرَابَ خَوَاطِرِي فَيُجِيبُنِي بِرِيَاحِهِ الهَوْجَاءِ

ثاوٍ عَلَى صَخْرٍ أَصَمَّ وَلَيْتَ لِي قَلْبًا كَهَذِي الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ

يَنْتَابُهَا مَوْجٌ كَمَوْجِ مَكَارِهِي وَيَفُتُّهَا كَالسُّقْمِ فِي أَعْضَائِي

وَالبَحْرُ خَفَّاقُ الْجَوَانِبِ ضَائِقٌ كَمَدًا كصَدْرِي سَاعَةَ الإِمْسَاءِ

تَغْشَى الْبَرِيَّةَ كُدْرَةٌ وَكَأَنَّهَا صَعِدَتْ إِلى عَيْنَيَّ مِنْ أَحْشَائي (26)

كثير من صور اضطراب البحر المخيفة اقترنت عند جماع بالحرب والموت، فهو ينظر في الجيوش التي تبحر لغزو البلدان ثم تتقاتل ويكثر الموتي في الحرب، فتكون دلالة الاضطراب هنا صورة الموت وكثرة الجنود الذين يشبهون في حركتهم موج البحر والعنف الذي تتصف به هذه الأمواج كقصيدته (جنون الحرب)

وأنابَ موجُ الحربِ والتقتِ الجحافلُ بالجحافلْ

حتى إذا انحسر الوغى عاد الجنودُ بغيرِ طائلْ [27]

ولا يخلو الشعر القديم من إشارة للبحر عند وصف الحرب وكثرة الجيوش، واضطراب حركتها كقول عنترة بن شداد العبسي:

ولقد لقِيتُ الفُرسَ يا ابْنَة مالكٍ وجيوشُها قد ضاق عنها البِيدُ

وتموجُ موجَ البحرِ إلا أنها لاقتْ أُسُودًا فوقهُنَّ حديدُ [28]

ظلت صورة الأمواج واضطرابها دالة على نفس جماع القلقة المضطربة، وربما يصحب القلق تمردا ونفورا من الحالة النفسية التي تأسر الشاعر ويسعى للتفلت منها، وقد وجد في حركة موج النيل صحبة لانفعال نفسه، وشبيها بحالته التي تحيط به فينفرد بها عن البشر، دلالة النيل – باعتباره ماءً شاسعا مثل البحر – يشير بها جماع إلى بعد آماله واتساعها، وهي الآمال التي أقلقت نفسه وحرمتها السكون، فهو كالسيل الذي لا يهدأ ولا يستقر، وحركة موج النيل عند الجنادل دلالة على القلق والغضب والثوران :

وظل يضربُ في الصحراءِ منسربًا وحوله من سُكونِ الرَّملِ طُوفانُ

إذا الجنادلُ قامت دونَ مسربهِ .... أرغى وأزبدَ فيها وهو غضبانُ

ونشَّر الهولَ في الآفاقِ محتدِمًا ... جمَّ الهياجِ كأن الماءَ بركانُ

وحوّلَ الصخرَ ذرًا في مساربِه ... فباتَ وهو على الشطينِ كُثبانُ

عزيمةُ النيلِ تُفْنِي الصخْرَ فورَتُها ... فكيف إن مسّهُ بالضيمِ إنسانُ

وانسابَ يحُلُم في وِادٍ يُظَلِّلُهُ ... نخلٌ تهدّلَ في الشطينِ فينانُ

بادي المهابةِ شمَّاخٌ بمَفْرِقِهِ .... كأنما هو للعَلياءِ عنوانُ [29]

كلمة المهابة في البيت الأخير وما يدور حولها من صفات، أوقعت دلالة أخرى هي المهابة والجبروت الذي يتسم به النيل، وعند الأدباء إشارة إلى دلالة الموج على الجبروت والمهابة لأن الموج يجرف كل شيء أمامه، فيكون الخوف، (وهدير الأمواج شعر لأنه يمثل عظمة الجبارين، وظلام الليل شعر لأنه يطلق دموع الباكين، وحفيف أوراق الأشجار شعر لأنه يمثل المناجاة في مواقف العشاق، وبكاء الحمائم شعر لأنه يمثل فجعة البين ولوعة الفراق، تلك النغمات الشعرية التي نسمعها من فم الإنسان مرة وفم الطبيعة أخرى هي التي زخرفت لنا هذه الحياة وألبستها ذلك الثوب الناعم الأبيض من السعادة والهناء حتى أحببناها) [30]

دلالة الماء والموج على القلق والاضطراب قديمة في الشعر، ولعل نفسية الشاعر الجاهلي امرئ القيس الكندي القلقة دليل على هذا، فالنيل المضطرب الأمواج عند جماع يشبه السيل الذي وصفه امرؤ القيس، حين ذكر أسماء الجبال والبلدان التي غمرها ذلك السيل، وهي الأبيات الأخيرة من معلقته:

على قَطَنٍ بالشَّيْمِ أيْمَنُ صَوْبِهِ وأيْسَرُهُ على السّتارِ فَيَذْبُلِ

فأضْحَى يَسُحُّ الماءَ حَوْلَ كُتَيْفَةٍ يكُبّ على الأذقانِ دَوْحَ الكَنَهْبَلِ

وَمرّ عَلَى القَنَّانِ مِنْ نَفَيانِهِ فَأَنْزَلَ منه العُصْمَ من كلّ منزِلِ

وَتَيْمَاءَ لم يَتْرُكْ بها جِذْعَ نخلَةٍ ولا أُطُمًا إلا مَشيدًا بِجَنْدَلِ

كأنّ ثَبيرًا في عَرانينِ وَبْلِهِ كَبيرُ أُناسٍ في بجاد مُزَمَّلِ

كأنّ ذُرَى رَأْسِ الْمُجَيْمِرِ غُدْوَةً من السّيلِ والأغْثاء فَلكة مِغزَلِ

وألْقَى بصَحراءِ الغَبيطِ بَعاعَهُ نزُولَ اليماني ذي العُيابِ الْمحمّلِ

كَأنَّ مَكاكيّ الجواء غُدَيّةً صُبحنَ سُلافًا مِن رَحيقٍ مُفَلْفَلِ

كأنّ السّباعَ فِيهِ غَرْقَي عَشِيّةً بِأَرْجَائِهِ القُصْوَى أنابيشُ عُنْصُلِ [31]

ثمة تشابه بين دلالة النيل عند جماع، ودلالة السيل عند امرئ القيس الكندي، فإنهما مع إحساس القلق والاضطراب النفسي في صورة الماء، فقد كان الماء يحمل دلالة النشوة والفرح والحياة، فسلسل النيل عند جماع من الصهباء التي ينتشي شاربها، وصورة المكاكي – ضرب من الطيور – في أبيات امرئ القيس أيضا تدل على الإحساس بالفرح في صورة الماء وأثره الطبيعي على الأرض. فلم ينس الشاعران سمة الماء المتعلقة بالحياة في غمرة الاضطراب والدمار الذي يسببه السيل المندفع ومثل هذه الدلالة للماء على القلق مع الرغبة في الحياة نجدها في أبيات النابغة الذبياني في معلقته وسبب قلقه الخوف من وعيد النعمان بن المنذر، مشبها النعمان في كرمه بنهر الفرات، لكنه أطنب في وصف النهر وحركة موجه العنيفة :

فمَا الفُرَاتُ إذا جَاشَتْ غَوَارِبُهُ تَرْمِي أَوَاذِيُّهُ العَبْرَيْنِ بِالزَّبَدِ

يَمُدُّهُ كُلُّ وادٍ مُزْبِدٍ لَجِبٍ فِيهِ حُطَامٌ مِنَ اليَنْبُوتِ وَالخَضَدِ

يَظَلُّ مِنْ خَوْفِهِ المَلاَّحُ مُعْتَصِمًا بالخَيْزُرَانَةِ بَعْدَ الأيْنِ وَالنَّجَدِ

يَوْمًا بِأَجْوَدَ مِنْهُ سَيْبَ نَافِلَةٍ وَلاَ يَحُولُ عَطَاءُ اليَوْمِ دُونَ غَدِ [32]

وفي النقد الحديث إشارات إلى تأثير حركة السيل والماء في نفوس الشعراء الجاهليين، كتأثير هذه الظواهر الطبعية في الشعراء المعاصرين، كإشارة عبد القادر القط، إلى أن الشاعر الجاهلي (يتجاوز الوقوف على

الأطلال إلى وصف مشاهد في الطبيعة شأنها أن تحرك وجدان العربي وتثير خياله، كالبرق والسيل والمطر فهو في الأغلب يرصدها من بعيد، متخذًا من البعد المكاني ذريعة للبعد النفسي حتى لا يصرح بشعوره) [33]، هذه هو المذهب النفسي الذي جمع بين امرئ القيس وإدريس جماع، إذ يتخذ عبدالقادر القط من أبيات امرئ القيس السابقة وما يشابهها من أقوال الجاهليين نماذجَ لذلك الأثر النفسي .

دلالة الخوف والمجهول:

كان البحر مقترنا بكثير من قصص القرآن، ومنها ما كان دلالته فيها الخوف والمجهول، كدلالته في قصة فرار بني إسرائيل من بطش فرعون {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) [34]، وفي آية سورة الإسراء {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا)[35] يظهر خوف الإنسان من البحر وأهواله، ومظنة الموت والهلاك فيه، لأنه ليس المكان المألوف لعيش البشر، إنما يمرون فوقه مرورا اضطراريا، وفي قصة الطوفان، كان البحر والماء من أدلة الهلاك، في قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا

لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ *} [36]وكان البر مظنة النجاة، قيل في قصة الطُّوفان (إن الله عز وجل أرسل الطوفان لثلاث عشرة خلت من آب، وإن نوحا أقام في الفلك إلى أن غاض الماء، واستوت الفلك على جبل الجودي بقردى، في اليوم السابع عشر من الشهر السادس فلما خرج نوح منها اتخذ بناحية قردى من أرض الجزيرة موضعا، وابتنى هناك قرية سماها ثمانين، لأنه كان بنى فيها بيتا لكل إنسان ممن آمن معه وهم ثمانون، فهي إلى اليوم تسمى سوق ثمانين).[37]

طبيعة البشر أن يكونوا في البر، أما البحر فإنه مما لا يألفه الطبع البشري، لذلك يشعر الإنسان – إذا ركب البحر– بالخوف والاضطراب، لاتساع مساحة الماء حوله وبعد أفقه حتى أنه لا يرى برًا حين يبلغ وسط البحر (إن الإحساس بالرهبة والخوف من البحر شعور عام ومفهوم مطّرِد، وإن ارتباط البحر بالظلمة وبسمة المجهول قد استقر في روع الكثيرين، فهو مستقر الأهوال والخوف والرعب، إلى جانب احتوائه على الخير والآمال،..... هذه الرهبة تتصل بأمواجه المتلاطمة المضطربة، وبتلك الظلمة الكامنة في أغواره..) [38] وفي الشعر القديم من نظر في البحر فاقترن عنده بالخوف، انظر قول الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد البكري، يشبه الظعائن بالسفن ثم يصف ماء البحر وجهد الملاح: [39]

كَأَنَّ حُدوجَ المالِكِيَّةِ غُدوَةً خَلايا سَفينٍ بِالنَواصِفِ مِن دَدِ

عَدَولِيَّةٌ أَو مِن سَفينِ اِبنِ يامِنٍ يَجورُ بِها المَلّاحُ طَورًا وَيَهتَدي

يَشُقُّ حَبابَ الماءِ حَيزومُها بِها كَما قَسَمَ التُربَ المُفايِلُ بِاليَدِ

وقد بث ابن حمديس الأندلسي ما في نفسه من رهبة البحر، وعدم أُلفَتِه إياه في أسلوب بديع حين قال:

لا أركبُ البحرَ، أخشى عليَّ منه المعاطبْ!

طينٌ أنا وهو ماءٌ، والطّينُ فى الماءِ ذائبْ. (40)

ودلالة البحر على المجهول تظهر أيضا في شعر عبد الله الطيب في غربته، إذ يحن للنيل، لكنه ينظر في المسافات التي تفصله عن النيل، فيرى بحرا واسعا لا حدّ له:

لقد ملأَ الكونَ الربيعُ ولم يزلْ شتاءُ فؤادي ليلُهُ مُتَراكِمُ

وقد لبسَ الأرباءُ بالروضِ سندس وشائعَ ثغرُ الزهرِ منهن باسمُ

وغنت على الدوحِ البلابلُ سُحرةً فجاوَبَهُنَّ بالغداةِ الحمائمُ

ولكنني ناءٍ غريبٌ وشُقَّتي بعيدٌ ودونَ النيلِ بحرٌ خُضَارِمُ (41)

وتظهر دلالة البحر على الخوف والمجهول أيضا في البيت المشهور من معلقة امرئ القيس:

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخَى سُدولَهُ عليَّ بأنواعِ الهمومِ ليبتلي (42)

يتشابه القدماء والمحدثون في دلالة البحر على المجهول والخوف والتيه والغربة، فهذا مصطفى سند يجعل التائهين عائدين من بحر مجهول، وهذا البحر رمز للسفر الطويل الذي مضى فيه هؤلاء التائهون فيقول في قصيدته عودة أوكتا:

في الصبحِ حين يرجعُ المهاجرونْ

من آخرِ البحارِ فجأةً يسافرونْ

لأن لعنةَ الغجَرْ

منقوشةٌ على عيونِهم

لأنَّ في قلوبِهِم سَحابةُ الضّجَر [43]

لعنة الغجر المتجولين تجسدت عند سند بصورة البحر المجهول الأصل والحد والبداية والنهاية، وتجسدت مجهولية المصير عند جماع في صورة البحر، والمجهول والخوف الذي يحتمله البحر عند جماع يتمثل في حالة الخوف التي حولت البحر إلى ساحة للقتال والدماء، فهو قد شهد السفن الحربية تحمل رسل الموت والدمار، فيقتل الناس بعضهم بعضا في عرض البحر، ويكون الموج قبورهم، ففي قصيدته (مقبرة في البحر)، يجعل قطرات الماء في الموج حاملة قطرات دم الضحايا:

إن تسلْ كلَّ موجةٍ تلقَ فيها قطرةً من دمِ الضحايا تمُرُّ

مازجَتْ ماءَهُ فهل يظمأُ البحرُ لنهلِ الدماءِ وهو البحرُ

تحتَ صَرحٍ من الدُّخانِ عراكٌ وانفجارٌ عاتي الدويِّ وذعرُ

إنها قطعةٌ تُجاوِبُ أخرى لغةٌ لفظُها حديدٌ وجمرُ

رقصتْ رقصةَ الذبيحِ من الطيرِ ومادتْ كأن نجمًا يخِرُّ

في الخِضمِّ العميقِ تدفِنُ صرْعاها فهم في سريرةِ الماءِ سِرُّ

ومآلُ الغريقِ إما مماتٌ أو نجاةٌ وفي النجاةِ الأسرُ

كيف يبغي النجاةَ من قبضةِ البحرِ وفي كل موجةٍ منه قبرُ

طمعٌ أشعل البحارَ وعانى حُرَقًا من لظاهُ جوٌّ وبحرُ

راكبُ البحرِ خافقُ القلبِ باتتْ بينَ جنبيهِ لوعةٌ تستقرُّ

...

ونسورٌ تشُقُّ ألوِيةَ السُّحبِ بعزمٍ يَحارُ فيه النَّسْرُ

سجدَ البحرُ خاشعًا تحتَ رجليها كقدِّيسٍ احتواه الدَّيرُ

غاصتِ الناسُ لا لدُرٍّ – لأغلى من دماءِ الصريعِ وهو النصرُ

وقف الحوتُ عندهم مستطارًا شاردَ اللبِّ لا يواتيهِ فِكرُ (44)

اطّرد عند المحدثين من الشعراء أن يبثوا خوفهم في الشعر في هيئة بحر هائج كما فعل جماع حين ربط هيجان البحر ورهبته بمشهد الموت أو خشية الموت، وقد ذكر إحسان عباس هذه السمة في شعر سلمى الخضرا الجيوشي بقوله : (وتضيف الشاعرة تجربة أخرى حين تستغل صور السفينة أو المركب، وما يتعلق بهما من شراع وقلع ومجداف (صور تتردد عند فدوى أيضا) لتعبر بالسفينة الغارقة عن الموت المنقذ، من حياة تحول فيها الحب عن طبيعته السمحة:

تغوص سفينتي في البحر، تغرق لا أنَجِّيها

صقيع الليل، يا ويلي، يكدس ثلجه فيها (45)

وفي قصيدة (مآسي الحرب)، يقرن جماع مظهر السفن (الجواري) بالحرب والموت والخوف، فهن مع جمال مظهرن صِرْنَ حبيساتٍ للبحر حين أصابتهن ألغام الحرب:

والجواري يسبحن في روعةِ اليمِّ يُبْدِينَ مظهرًا سحريّا

تركتْها الألغامُ في البحرِ أشلاءً ترى الماءَ بكرةً وعَشِيّا [46]

هناك مظهر آخر من مظاهر الخوف المتعلق بمشهد البحر، والمقاتلون على سطحه بسفنهم الغازية، لكنه هنا خوف الأعداء لا خوف الشاعر، وفي كلا الحالتين فإن نفس الشاعر ونفس عدوه تعدان البحر مصدرا للخوف والحذر والمجهول، لأن دلالة الخوف هنا تقع على النفس البشرية عامة، ولعل الشاعر أسقط خوفه ورهبته من البحر على نفوس أعدائه، حين وصف سفن المسلمين وهي تجتاز المضيق إلى إسبانيا قديما، تحمل جيش طارق بن زياد، ففصل وصف البحر وما يحمله من نذير لأولئك الأعداء، أو أهل الأرض المغزوة، والبحر هنا يفصل بين أرضين مختلفتي الدين والثقافة واللغة، فيكون المجهول في هذه الحالة هو ما يحجبه البحر وراءه من اختلاف هذه الأمم التي يفصل بينها، صوَّر جماع مشهد الخوف هذا في قصيدته (الشرق يتذكر) وأعقبها بعبارة، ملحمة للمد العربي 1943م

من مغاني أرضِ الجزيرة هبّتْ يقْظةُ الفكرِ بعدَ طولِ احتجابِ

ودّعتْ مكةُ النهارَ وسالتْ موجَةُ الليلِ من أعالي الشِّعابِ [47]

لستُ أهتزُّ للفتحِ فقد يرجِع غازٍ بالحقدِ والأسلابِ

غير أن الإسبانَ في جبرةِ القوطِ وهتكِ الأعراضِ والأغضاب [48]

لم يرَوا جيش طارقٍ رمزَ طغيانٍ إذا مسَّ طُهْرَ ذاك الترابِ

لم يكن لوذريقُ يسمو عن الجورِ وفرطِ المُجونِ والارتكابِ

أينَ عهدُ الشعوبِ من حاكمٍ يبسُطُ سلطانَه رهيبِ الجنابِ

جنّةٌ غضةٌ ثراهم وما كانَ لهم منه غيرَ وطءِ الترابِ

وبإفريقيا فتىً تتعالى نفسُهُ أن تَقَرَّ فوقَ السحابِ

وقفت دون حُلْمِهِ رهبةُ البحرِ وجيشٌ مدَجّجٌ في ارتقابِ

فرمى البحرَ بالسفينِ وشقَّ اليمَّ في موكبٍ عظيمٍ مهابِ

حلّقَ النصرُ فوقَهُ ومشى الموتُ حواليهِ بارزَ الأنيابِ

همستْ كلُّ موجةٍ تسألُ الأخرى وترمِي بنظرةِ استغرابِ

فترى الجيشَ مُبحِراً والجواري يتحدّرنَ في ممرِّ العُبابِ

وترى الحوتَ إذ يمرُّ حواليها مرورَ المُجانِبِ الهيابِ (49)

كثر التعبير بالبحر والموج عن الحرب والثورة عند جماع، فهو بعد أن اتخذ من البحر مضمارا يرهبه العدو، عاد فجعل الموج دلالة على قوة الشعوب وثوراتها على الظلم، ولا شك أن قوة اندفاع الموج أوحت إلى جماع بهذه الصورة التي يصف بها الجماهير الثائرة، حتى جعل عنوان القصيدة (هذه الموجة)، مشيرا إلى دلالة الموجة على ثورة الشعوب بقوله : (تنساح دائماً موجة التحرر إلى أبعد حدٍّ)

هذه الموجةُ من هذا الخِضَمْ فيَضانٌ زاخرٌ بين الأممْ

ومن الموجةِ فاضتْ لُجّةٌ تكسحُ الذلَّ وتجتاحُ الرِّممْ

بين صيحاتٍ تعالتْ مثلما يقذفُ البركانُ أشلاءَ الحِممْ

والتقى التيارُ وساح كما (50) تحضُنُ العالمَ أمواهُ الخِضَمْ (51)

وصورة السيل باعتباره ماحيًا للفساد موجودة في القرآن الكريم، ففي سورة سبأ مثل لفعل السيل في الأرض، مقترنا بالخراب وذلك في قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ} (52) وصورة السيل في هاتين الآيتين صورة القوة المنتقمة، وهي الصورة التي تخيلها جماع حين جعل ثوران الماء قوةً تحارب الظلم وتمضي لاقتلاعه وإزالته، وذلك حين يصف ثورة الشعوب على ظالميها، وقد كررها في قصيدة (نضال لا ينتهي): من وحي الذكرى الأولى لعيد الحرية:

بعدَ موجٍ لا يُحيِّيهِ السّنا أدركَ الزورقُ شُطآنَ المُنَى

ومن الشطآنِ هبتْ نسمةٌ وإلى حريةٍ أفضتْ بِنا (53)

الخاتمة:

خلصت الدراسة إلى أن إدريس جماع وظف البحر والماء توظيفا أدبيا يشابه غيره من شعراء العصر الحديث، فللبحر في شعره دلالة الشاعرية التي يبعثها مشهد البحر في النفس، ودلالة الخوف والمجهول ودلالة القلق والاضطراب، وظهرالترميز بالبحر عنده باستقراء شعره والنظر في الأبيات التي ذكر فيها البحر وما يلازمه من صفات وألفاظ مثل الموج، وقد كثر استخدام هذا اللفظ عند جماع في الدلالة على القلق والاضطراب، وهذا أمر يناسب البيئة النفسية التي كان يعيش فيها الشاعر، لقد عبرجماع عن هذه البيئة النفسية القلقة المضطربة باتخاذ صفات البحر المشابهة لنفسه مادةً للشعر والمعاني التي يريدها.

الحوامش:

1- الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، دار الحديث، القاهرة، 1423هـ، ج1، ص 80
2- صفة البحر في الشعر العربي، رسالة دكتوراه، إعداد/ أمل الشعراني، كلية الآداب، جامعة الخرطوم، 1996م، الصفحة ح من مقدمة الرسالة
3- عيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ، ج1، ص 222
4- المصدر نفسه، ج1، ص 461
5- [1]- توظيف المكان في الشعرالفلسطيني المعاصر خالدراضي خليفة،،دار النابغة للنشر والتوزيع، ط1، 2014م،ص 34
6- اتجاهات الشعر العربي المعاصر، إحسان عباس، المجلس القومي للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 1978م،ص249
7- المقابسات، ابو حيان التوحيدي، ت: حسن السندوبي، دار سعاد الصباح، ط2، 1992م، ص 225
8- اتجاهات الشعر العربي المعاصر، ص 203
9- العودة إلى سنار، شعر محمد عبد الحي، مدارات للطباعة والنشر والتوزيع، الخرطوم، 2010م، ص 16
10- أسواق الذهب، أحمد شوقي، مطبعة الهلال، مصر، 1932م، ص 91
11- اللؤلؤ في الأدب،محمد توفيق الصديقي، ط1، 1927م، ص 28
12- ديوان لحظات باقية، دار الفكر، الخرطوم، ط4، 1989م،،ص 61
13- نفسه ، ص 67
14- النظرات، مصطفى لطفي المنفلوطي، دار الآفاق الجديدة، ط1، 1982م، ج1، ص 100
15- البحر القديم، شعر مصطفى سند، دار عزة، الخرطوم، 2004م، ص 14
16- العودة إلى سنار، شعر محمد عبد الحي،ص 6-7- 8
17- ديوان لحظات باقية، ص 17
18- لحظات باقية، ص 18
19- نفسه، ص 39- 40- 41
20- في الميزان الجديد، محمد مندور، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2004م ص 69- 70
21- الصورة في شعر إدريس جماع، (أنواعها، أدواتها، مصادرها)، محمد محجوب محمد عبد المجيد، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قناة السويس، العدد3، يناير 2011م، ص 456
22- أسواق الذهب، ص 94
23- لحظات باقية، ص 82
24- نفسه، ص 86
25- في الأدب الحديث، عمر الدسوقي، دار الفكر العربي، 2000م، ج2، ص 180

26- ديوان خليل مطران، مطبعة المعارف، الفجالة، مصر، ب.ت، ص 120- 121
27- لحظات باقية، ص 36
28- ديوان عنترة، مطبعة الآداب، أمين الخوري، بيروت، 1893م ص 33
29- لحظات باقية، ص 40- 41
30- النظرات، مصطفى لطفي المنفلوطي، ج2، ص 200- 201
31- ديوان امرئ القيس الكندي، اعتنى به، عبدالرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط2، 20014م، ص65- 69
32- شرح القصائد العشر، التبريزي، (يحيى بن علي)، الطباعة المنيرية، 1352هـ،ص 320- 321
33- مؤسسة جائزة سعود البابطين للإبداع الشعري، الدورة الثالثة، دورة البارودي، 12- 14 ديسمبر 1992م، مقالات، ص 294
34- من سورة يونس، الآية 90
35- الإسراء، الآية 67
36- الآيات من سورة هود
37- تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري، دار التراث، بيروت، ط2، 1387هـ، ج1، ص 189
38- صفة البحر في الشعر العربي، أمل الشعراني مصطفى، ص 35
39- شرح القصائد العشر، ص 57
40- نهاية الأرب، في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1423،1هـ، ج، ص 255
41- ديوان أصداء النيل، من شعر عبدالله الطيب،الدار السودانية للكتب، ط3، 1969م، ص 33
42- شرح القصائد العشر، ص 35،
43- البحر القديم، ص 44
44- لحظات باقية، ص 89- 90
45- اتجاهات الشعر العربي المعاصر، إحسان عباس، ص 198
46- لحظات باقية، ص 91
47- نفسه، ص 68
48- هكذا في طبعة الديوان، وأظنها الاغتصاب
49- لحظات باقية، ص 71
50- صدر البيت مختل الوزن، والراجح أنه وقع خطأ في نسخه من الأصل، ولعلها: والتقى التيار أو ساح كما....
51- لحظات باقية، ص 22
52- سورة سبأ، الآيتان: 15- 16
53- نفسه، ص 32

المصادر والمراجع:

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: الكتب:

1- التبريزي، (يحيى بن علي)، شرح القصائد العشر، الطباعة المنيرية، 1352هـ

2- التوحيدي أبو حيان، المقابسات،، ت: حسن السندوبي، دار سعاد الصباح، ط2، 1992م

3- خليفة، خالد راضي توظيف المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر، دار النابغة للنشر، ط1، 2014م

4- الدسوقي، عمر في الأدب الحديث،، دار الفكر العربي، 2000م

5- الدينوري ابن قتيبة، الشعر والشعراء،، دار الحديث، القاهرة، 1423هـ،

6- الدينوري، ابن قتيبة عيون الأخبار،، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ

7- شوقي، أحمد أسواق الذهب،، مطبعة الهلال، مصر، 1932م

8- الصديقي، محمد توفيق، اللؤلؤ في الأدب،، ط1، 1927م

9- الطبري، محمد بن جرير تاريخ الرسل والملوك، دار التراث، بيروت، ط2، 1387هـ

10- عباس،إحسان اتجاهات الشعر العربي المعاصر، المجلس القومي للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 1978م

11- مندور، محمد في الميزان الجديد،، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2004م-،

12- المنفلوطي، مصطفى لطفي النظرات،، دار الآفاق الجديدة، ط1، 1982م

13- النويري، شهاب الدين نهاية الأرب، في فنون الأدب،، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1423،1هـ

دواوين الشعر:

1. الطيب، عبدالله ديوان أصداء النيل، من،الدار السودانية للكتب، ط3، 1969م
2. القيس ديوان امرئ الكندي، اعتنى به، عبدالرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط2، 2014م
3. سند، مصطفى ديوان البحر القديم، شعر، دار عزة، الخرطوم، 2004م
4. مطران، خليل ديوان، مطبعة المعارف، الفجالة، مصر، ب.ت
5. عنترة، ديوان، مطبعة الآداب، أمين الخوري، بيروت، 1893م
6. عبد الحي، محمد، العودة إلى سنار، شعر مدارات للطباعة والنشر والتوزيع، الخرطوم، 2010م
7. جمّاع، إدريس ديوان لحظات باقية، شعر، دار الفكر، الخرطوم، ط4، 1989م

الرسائل الجامعية:

1. شعراني، أمل، صفة البحر في الشعر العربي، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الخرطوم، 1996م
2. عبد المجيد، محمد محجوب محمد، الصورة في شعر إدريس جماع، (أنواعها، أدواتها، مصادرها)،، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قناة السويس، العدد3، يناير 2011م